الفصل الثالث

الوعد المقدس

إبراهيم أب العرب وأب الأنبياء جميعًا ، وهو إبرام قبل أن يدعى إبراهيم بأمر الرب[1] ، ولد فى أورالكلدانيين ونشأ بها ونزح منها مع أبيه وابن أخيه لوط إلى حاران[2] حتى عبر منها بأمر الرب إلى كنعان[3] فدعى بالعبرى ودعى قومه بالعبريين وظلّ إبراهيم يتجوّل فى أرض كنعان غريبًا فيها وانحدر منها إلى مصر حين أصابت البلاد مجاعة ونال فيها خيرًا « فصار له غنم وبقر وحمير وإماء وأتن وجمال »[4] ثم صعد من مصر إلى أرض كنعان إلى حيث أقام مذبح الرب ونصب خيمته فى البداية بين بيت أيل وعاى[5] .

وكان أوّل وعد الرب لإبراهيم حين أمر بالعبور إلى كنعان « وقال الرب لإبرام اذهب من أرضك وعشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك . فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك . وتكون بركة . وأبارك مباركيك ولاعنك ألعنه . وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض[6] .

---

(١) تكوين ١٧ : ٥ .
(٢) تكوين ١١ : ٢٧ - ٢٩ .
(٣) تكوين ١١ : ٣١ ، ١٢ : ١ - ٩ .
(٤) تكوين ١٢ : ١٦ .
(٥) تكوين ١٣ : ٣ .
(٦) تكوين ١٢ : ١ - ٢ .

وحق وعد الله فكان من نسل إبراهيم أمة هى أمة العرب كما كان بنو إسرائيل بعض نسله ، وكان منه الأنبياء والرسل ، وبورك اسمه فى كل دين ، ومن رسالته أهلت كل رسالات السماء ، اليهودية والنصرانية والإسلام .

ولم يلعن من آل إبراهيم غير اليهود فقد ضلّوا هديه ، وامتهنوا رسالته ، وحوروها عنصرية هوجاء ماكرة ، فاستباحوا فيها كل فضائل البشر .

ثم كان وعد الرب لإبراهيم بالأرض التى هو عليها وكانت أرض كنعان ، فلسطين ، وكان هذا أوّل وعد بأن تكون فلسطين لذرية إبراهيم . « وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطى هذه الأرض . فبنى هناك مذبحًا للرب الذى ظهر له[1] .

والمعنى واضح فى « نسلك » فإنها تشمل كلّ نسل إبراهيم لا بعضه كما يريد اليهود لها أن تكون .

وكان هذا الوعد قبل أن يرزق إبراهيم ولدا أو ذرية ولم يكن إسماعيل وإسحاق قد ولدا بعد .

وتكرر الوعد قبل مولدهما أيضًا وكان ذلك حين اعتزل إبراهيم لوطا واختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل شرقًا . واعتزل كلاهما الآخر . إبراهيم سكن فى أرض كنعان ولوط سكن فى مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم « وقال الرب لإبرام بعد اعتزال لوط عنه . ارفع عينيك وانظر من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا ؛ لأن جميع الأرض التى أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد . واجعل نسلك كتراب الأرض . حتى إذا استطاع أحد أن يعد تراب الأرض فنسلك أيضًا يعد . قم امش فى الأرض طولها وعرضها لأنى لك أعطيها . فنقل إبرام

---

(١) تكوين ١٣ : ٧ .

خيامه وأتى وأقام عند بلوطات ممرا التى فى حبرون . وبنى هناك مذبحًا للرب[1] .

وفى هذا الوعد تخرج كل دائرة الأردن شرقًا من أرض الميعاد ويقف الوعد بأرض الميعاد عند حدود الأرض التى يراها إبراهيم فى جهاتها الأربع .

وحين بشر إبراهيم بالإرث لنسله ولمن « يخرج من أحشائه[2] » كان إسمعيل أوّل من ولد له بعد ما طلبت منه زوجه سارة أن يدخل بجاريتها هاجر حتى يكون له منها نسل بعد أن ظلت عقيمًا ، وجاء الوعد بهذا الإرث محددًا « فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقًا قائلًا . لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات . القينيين والقنزيين والقدمونيين . والحيثيين والفرزيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين[3] .

واقتران الوعد هنا بمولد إسمعيل أو البشرى بمولده وبالإرث لإبراهيم من صلبه يعنى أن الوعد كان لإسمعيل والإرث له فإذا عم الإرث أبناء إبراهيم جميعًا فمعنى ذلك أنه ليس لإسحق أو لنسله من يعقوب أو (إسرائيل) وحدهم بل هو للعرب أيضًا وهم نسل إبراهيم .

وفى رواية التوراة مصداق ذلك وتوكيد له ففى الكثرة التى يشير بها الرب إلى نسل إبراهيم ما ينطبق على نسل إسمعيل دون نسل إسحق ، فقد أصهر أبناء إسمعيل إلى أبناء أخيه إسحق حين تزوج عيسو شقيق يعقوب وابن إسحق من محلة ابنة إسمعيل أما يعقوب فقد أصهر إلى أبناء

---

(١) تكوين ١٣ : ١٤ - ١٨ .
(٢) تكوين ١٥ : ٤ .
(٣) تكوين ١٥ : ١٨ - ٢٠ .

خؤولته من الكلدانيين وبعدت نسبة الإرث من إبراهيم إليه بينما اقتربت بزواج عيسو بن إسحق من محلة ابنة اسمعيل .

واجتمع فى نسلها أكثر أبناء إبراهيم وكانوا هم الكثرة وأبناء يعقوب وهو إسرائيل القلة وكانت كثرتهم مصداق ما بشرّ به الرب إبراهيم « وقال إبرام أيضًا إنك لم تعطنى نسلاً وهو ذا ابن بيتى وارث لى . فإذا كلام الرب إليه قائلاً . لا يرثك هذا . بل الذى يخرج من أحشائك هو يرثك . ثم أخرجه إلى خارج . وقال انظر إلى السماء وعد النجوم إن استطعت أن تعدها . وقال له هكذا يكون نسلك[1] » .

ثم دخل إبراهيم بهاجر لتلد له بِكْره إسمعيل ويقترن هذا الوعد بمولده ويكثر أبناؤه حتى يصبحوا عدد نجوم السماء كما وعد الرب وتكون منهم أمة العرب التى امتدت وملأت بقاع تلك الساحة الرحيبة التى تعرف بالعالم العربى اليوم ، وذهب أبناء إسحق من الإسرائيليين قلّة ، بددًا فى كلّ صقع من أصقاع الأرض .

وكان عهد الختان ، ختان إسمعيل ، ولم يكن إسحق قد ولد بعد ، ولا يمكن أن ترتبط النبوءة بمن كان فى ضمير الغيب لا يعلم عنه أبوه شيئًا ولا تعلم أمّه سارة أن الله سيفكّ عسرتها ويأسو عقمها لتلد إسحق وقد نيف إسمعيل على الثالثة عشرة من عمره « ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملاً . فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرًا جدًّا . فسقط إبرام على وجهه . وتكلم الله معه قائلاً . أما أنا فهو ذا عهدى معك وتكون أبًا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم ؛ لأنى أجعلك أبًا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرًا جدًّا وأجعلك

---

(١) تكوين ١٥ : ٣ - ٥ .

أممًا وملوك منك يخرجون . وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدًا أبديًا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك . وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكًا أبديًا ، وأكون إلههم »[1] .

ثم يعاهده الله على الختان « هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك . يختن منكم كل ذكر . فتختنون فى لحم غرلتكم ، فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم ، وليد البيت والمبتاع بفضه من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك ، فيكون عهدى فى لحمكم عهدًا أبديًا . وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدى »[2] .

وفى عهد الختان هذا ، يبشر الله إبراهيم بحمل سارة ومولد إسحق « وقال الله لإبراهيم سارای امرأتك لا تدعو اسمها سارای بل اسمها سارة . وأباركها وأعطيك أيضًا منها ابنا . أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون »[3] .

ونرى من سياق الوعود والعهود ، أن الوعد بأرض كنعان لنسل إبراهيم قد سبق بشراه تعالى لإبراهيم بحمل سارة ومولد إسحق ، ثم كان عهده بعد ذلك لأبناء سارة « أباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون » ما يؤكد أن عهد الختان كان لإسمعيل وحده وإلاّ ما كان هناك عهد جديد لإسحق إذا كان عهد الختان يشمل ذرية إبراهيم جميعًا من ولد

---

(١) تكوين ١٧ : ١ - ٨ .
(٢) تكوين ١٧ : ١٠ - ١٤ .
(٣) تكوين ١٧ : ١٥ - ١٦ .

ومن لم يولد بعد من هاجر أو سارة أو قطورة ، وإن كانت كلمة نسل لا تعنى التحديد والتخصيص بل الجمع والشمول .

ولا يمكن القول بأن ولادة إسحق قد مسّت حقّ إسمعيل أو أن ارتحال هاجر بولدها إسمعيل عن أرض كنعان نحو الجنوب قد حرمه من إرث النبوءة أو الوعد أو نسخ عهد الختان ، فإن كان الرب قد استجاب لسارة ففى التفريق بينها وبين هاجر لا فى حرمان إسمعيل من إرث أبيه إبراهيم « ورأت ساره ابن هاجر المصرية الذى ولدته لإبراهيم يمزح ، فقالت اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحق ، فقبح الكلام جدًّا فى عينى إبراهيم لسبب ابنه . فقال الله لإبراهيم لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك . فى كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها . لأنه بإسحق يدعى لك نسل . وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك[1] » .

والمعنى واضح فى ثبوت حق الغلامين قبل إبراهيم فكلٌّ منهما سيكون له نسل ينسب إلى أبيهما إبراهيم أما إسمعيل فقد تميّز بأن سيكون من نسله أمة وتعنى الجمع أو الكثرة ثم نسبة هذه الأمة إلى إبراهيم لأنه نسله ، وأما كلمة النسل فتعنى التحديد أو القِلة ، وقد كان من إسمعيل أمّة هى أمة العرب وكان من إسحق نسل هم بنو إسرائيل .

ولا تعرض إشارة الرب فى تلك الآيات إلى أرض الميعاد التى وعد الرب بها إبراهيم من قبل بل ولا يتكرر الوعد بعد ذلك فيما تلا من حياة إبراهيم ، وظلّ عهد الختان جماع الوعد المقدس بأرض الميعاد .

وقد ادعى الإسرائيليون من أبناء إسحق بعد ذلك أن ذرية إبراهيم

---

(١) تكوين ٢١ : ٩ - ١٧ .

تعنيهم وحدهم مع أن الختان الذى عقد عليه العهد بين الرب وإبراهيم كان ختان إسمعيل ، لا إسحق .

ولم يحدث تفريق بين إسمعيل وإسحق حين مات إبراهيم فقد اشتركا معًا فى دفنه « ودفنه إسحق وإسمعيل ابناه فى مغارة المكفيلة فى حقل عفرون بن صوحر الحثى الذى أمام ممرا »[1] . ولما ذكر سفر التكوين أبناء إسمعيل ذكر بعدهم أبناء إسحق[2] .

ويغفل العهد القديم بعد ذلك ذكر إسمعيل إلّا أنه لا يذكر فى أى سفر من أسفاره بعد ذلك ما يفيد أو يشير إلى حرمان إسمعيل أو ذريته من عهد الرب مع إبراهيم كما لا يذكر العهد القديم بعد ذلك أيضًا ما يفيد حرمان إسمعيل من عهد الرب مع إبراهيم وكل إشارة إلى إسرائيل بأرض الميعاد جاءت قرينة العهد الذى عاهد الرب عليه أباهم إبراهيم فقد كانت كلها من قبيل التذكير بوعد الرب لإبراهيم وذريته وكانت جميعًا قاصرة على أرض الكنعانيين وجيرانهم من الحيثيين والفرزيين واليبوسيين[3] ولم يرد ما يشير إلى تخوم أرض الميعاد وامتدادها من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات إلّا إشارات مبهمة تصعد حينًا إلى لبنان وأحيانًا إلى قادش والأردن وبحور وأنهار مجهولة وحين أشير إلى نوع من الحدود كانت تلك الحدود من « بحر سوف إلى بحر فلسطين ومن البرية إلى النهر »[4] وهى حدود لا شك غامضة .

ولا نجد فى سفر التكوين ما يشير إلى وعد من الرب لإسحق بأرض الميعاد بل حين ظهر له الرب بعد سنين من وفاة إبراهيم لم يمنحه غير

---

(١) تكوين ٢٥ : ٩ .
(٢) تكوين ٢٥ : ١٢ - ٢٦ .
(٣) خروج ٣٣ : ١ - ٢ . .
(٤) خروج ٢٣ : ٣١ .

البركة « فظهر له الرب فى تلك الليلة وقال أنا إله إبراهيم أبيك . لا تخف لأنى معك وأباركك وأكثر من نسلك من أجل إبراهيم عبدى »[1] ولم يزد الوعد ليعقوب عن الأرض التى هو مضطجع عليها « فخرج يعقوب من بئر سبع وذهب نحو حاران . وصادف مكانًا وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت . وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع فى ذلك المكان . ورأى حلمًا وإذا سلم منصوبه على الأرض ورأسها يمس السماء . وهو ذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق . الأرض التى أنت مضطجع عليها لك ولنسلك . ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غربًا وشرقًا وشمالاً وجنوبًا . ويتبارك فيك وفى نسلك جميع قبائل الأرض[2] » .

ولا يفيد الامتداد غربًا وشرقًا وشمالاً وجنوبًا نوعًا من التملك بل قد لا يعدو معنى الرحيل ، أما كثرة النسل فهى كثرة نسبية فإن الإسرائيليين كانوا على الدوام قلة إذا قيسوا بذرية إبراهيم من إسماعيل ومن أبنائه الآخرين الذين أصهروا إلى الإسماعيليين ، وليس لمسيحى أو مسلم أن ينكر بركة إسرائيل فقد تقدس إبراهيم وكل ذريته فى المسيحية والإسلام .

ويتكرر الوعد مرّة أخرى ليعقوب فى صورة تكاد تكون محدّدة ولكنها لا تعنى حرمان غيره من ذرية إبراهيم من إرث أبيهم « وقال له الله أنا الله القدير أثمر وأكثر . أمة وجماعة أمم تكون منك . وملوك سيخرجون من صلبك . والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها . ولنسلك من بعدك أعطى الأرض »[3] فإن يعقوب نفسه حين حضرته الوفاة لم يسوّ بين أبنائه فى نوال بركته وجعل لكل منهم وهم الذين عرفوا بأسباط إسرائيل

---

(١) تكوين ٢٦ : ٢٣ - ٢٤ .

(٢) تكوين ٢٨ : ١٠ - ١٤ .

(٣) تكوين ٣٥ : ١١ - ١٢ .

الاثنى عشر من بركته على قدر ما رأى فيهم[1] .

وحين اختار الله موسى نبيًّا لبنى إسرائيل ليقودهم من مصر إلى أرض كنعان وهو من نسل لاوى من يعقوب ، وكان يعقوب قد حرم ابنه لاوى من بركته « شمعون ولاوى أخوان . ألات ظلم سيوفهما . فى مجلسهما لا تدخل نفسى . بمجمعهما لا تتحد كرامتى لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانا وفى رضائهما عرقبا ثورا . ملعون غضبهما فانه شديد وسخطهما فإنه قاس . أقسمهما فى يعقوب وأفرقهما فى إسرائيل[2] » . ولا نجد تفسيرًا لحرمان لاوى من بركة أبيه ثم تكون الرسالة بعد ذلك فى عقبه أمًّا وأبًا . « وذهب رجل من بيت لاوى وأخذ بنت لاوى . فحبلت المرأة وولدت ابنا[3] » وكان هذا الولد موسى كما تجرى الرواية بذلك ، ولا نجد تفسيرًا لحرمان لاوى من بركة يعقوب ثم انتهاء البركة إليه بولادة موسى ، إلّا أن يكون بعض ما جاء على لسان يعقوب قد حرف تحريفًا شديدًا ، بل إن هناك من يقول إن وعد الرب ليعقوب بوراثة إبراهيم وإسحق كان لتبرير اغتصاب يعقوب بحيلة أمه لحق أخيه عيسو .

ثم إن موسى نفسه فى رحيله إلى مدين (مديان) فارًّا من وجه فرعون قد أصهر إلى كاهنها يثرو وهو رجل عربى عرف فى التوراة باسم « يثرون » وفى القرآن باسم شعيب وإلى يثرو يعزى أكثر ما نال موسى من نجاح . فإذا كانت هناك بركة لإسرائيل أو إرث ، فقد شارك فيها عربى من غير إسرائيل بل لعله من ذرية إبراهيم أولاد قطورة الذين ارتحلوا جنوبًا أو من نسل مديان بن إبراهيم من قطورة بالذات .

---

(١) تكوين ٤٩ : ١ - ٣٣ .
(٢) تكوين ٤٩ : ٥ - ٧ .
(٣) خروج ٢ : ١ - ٢ .

ولما تجلّى الرب لموسى فى طور سيناء وحمله رسالة الخروج بإسرائيل من أرض مصر إلى أرض كنعان لم يرد فى كلام الرب ما يفيد أن الصعود إلى أرض كنعان كان يعنى ملكيتهم لها ، بل كان الصعود للتحرر من استعباد المصريين لهم والخلاص من ظلمهم « أما موسى فكان يرعى غنم يثرون حميه كاهن مديان . فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب . وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة . فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق . فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة . فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة وقال موسى موسى . فقال هأنذا . فقال لا تقترب إلى ههنا . اخلع حذاءك من رجليك . لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة .

ثم قال أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ، فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى الله . فقال الرب إنى قد رأيت مذلّة شعبى الذى فى مصر وسمعت صراخهم من أجل مسخّريهم . إنى علمت أوجاعهم . فنزلت لأنقذهم من أيدى المصريين وأصعدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة . إلى أرض تفيض لبنًا وعسلاً . إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين[1] » .

فإذا تتبعنا ما جاء من تذكير الرب لموسى وقومه بأرض الميعاد نجد أن

---

(١) خروج ٣ : ١ - ٨ .

- لعل من المناسب فى هذا المقام أن نذكر ما جرت به آيات القرآن عن ذلك :

(وهل أتاك حديث موسى . إذ رأى نارًا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارًا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى ياموسى . إنّى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى . وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى . إنّنى أنا الله لا إله إلّا أنا فاعبُدنى وأقم الصلاة لذكرى . إنّ الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى .) (طه : ٩ - ١٥) .

المعنى يختلف عما أراد بنو إسرائيل من تفسير الوعد تفسيرًا ماديًّا يقوم على التملك والإرث ولا شيء سواهما ، بينما الدلالة بينة على معنى آخر . هو القداسة والكهانة وطاعة الرب والإرث للطاعة وليس الإرث لمن يضل كائنًا ما كان شأنه فى بنى إسرائيل . فالقداسة هى قداسة الله الواحد الأحد والكهانة هى خدمة الله فى محاريبه والقيام على وصاياه وتعاليمه والإرث فى نعم الله هى لمن يطيع الله فى أوامره ونواهيه ، وقد كانت الرسالة لإبراهيم فى ذريته ومات عنها وبركته مشاع بين بنيه ، فلما حملها إسحق من بعده كان يجب أن تكون بركته لبكره عيسو دون يعقوب ، ولكن أمهما رفقة كانت تحب يعقوب أكثر مما تحب عيسو احتالت حتى تحل البركة فى يعقوب بدل عيسو « وحدث لما شاخ إسحق وكلّت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يابنى . فقال هأنذا . فقال إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى . فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيدًا . واصنع لى أطعمة كما أحب وائتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحق مع عيسو ابنه . فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيدًا ليأتى به . وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إنّى سمعت أباك يكلّم عيسو أخاك قائلًا ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل وأباركك أمام الرب قبل وفاتى . فالآن يابنى اسمع لقولى فيما أنا آمرك به . اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيّدين من المعزى . فاصنعها أطعمة لأبيك كما يحب . فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته »[1]

وتمضى الرواية فتقول إن يعقوب خشى أن يكشف أبوه حيلته فتحلّ به

---

(١) تكوين ٢٧ : ١ - ١١ .

اللعنة بدل البركة ولكن رفقة شجعته وطمأنته وأعدّت له من ثياب عيسو ما يخفيه ومن سمة التنكر ما يجعله شبيهًا بعيسو ، ودخل يعقوب على أبيه فى هيئته الجديدة فأطعمه ونال بركته ولم يكن عيسو قد آب من صيده[1] .

فالإرث هو إرث البركة أو الرسالة وليس إرث الأرض ، والأرض للمؤمنين من عباد الله والاختيار لمن اختارهم الله لعبادته ، وقد اختار الله بنى إسرائيل من ذرية إبراهيم لتكون رسالة إسحق ويعقوب وموسى إليهم ، حتى إذا حلّت الرسالة فى المسيح عيسى بن مريم نسخت ميزة الاختيار عن إسرائيل وأصبحت الرسالة للناس كافةً وأضحى ملكوت الله لكل من عبد الله على الأرض من ذرية إبراهيم أو غير ذريته ، ومريم هى ابنة عمران وينتهى نسب عمران إلى إبراهيم أيضًا ، ثم كانت رسالة محمد للناس كافّةً فنسخت إلى الأبد حقّ الاختيار والميزة التى كانت لذرية إبرهيم على غيرهم ولم يعد لعربىٍّ فضل على عجمىٍّ إلّا بالتقوى ، ومحمد من ذرية إبراهيم ينتهى نسبه إلى إسمعيل .

فإذا كان بنو إسرائيل هم شعب الله المختار فقد كان هذا حين كانت رسالة الأنبياء إليهم وحدهم ، وحين عمّت الرسالة انسحب الاختيار إلى كلّ من آمن بالله واليوم الآخر إسرائيليًّا كان أم مسيحيًّا أم مسلمًا . والمختار هو المختار للرسالة وليس للتميز أو التفضيل على البشر .

أما إبراهيم وذريته فقد ظلّ إرث البركة أو الرسالة فيهم وحدهم حتى محمد آخر الأنبياء وأصبحت أرض البركة أو أرض الرسالة أو أرض الميعاد وهى قدس الأديان السماوية جميعًا ، هى إرث المؤمنين من عباد الله لا إرث إسرائيل وحدها ، وحين خصّ الله بها بنى إسرائيل على غيرهم من الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين فلأنهم

---

(١) تكوين ٢٧ : ١٢ - ٣٨ .

هم وحدهم من خصهم الله بعبادته فى ذلك الوقت ولم يرد الله لأرض قدسه أن تكون لغير المؤمنين فأصعد إليها بنى إسرائيل لتكون لهم أرضًا وسكنًا بدل شعوب أو قبائل تعبد الأصنام من دونه تعالى ، وحرّم عليهم عشرة أهلها حتى لا تعدو عليهم الوثنية بعد عبادة الله ، « لا تقطع معهم ولا مع آلهتهم عهدًا . لا يسكنوا فى أرضك لئلّا يجعلوك تخطئ إلى . إذا عبدت آلهتهم فإنه يكون ذلك فخا[1] »

وأوصاهم الرب بطاعته والخضوع لشريعته فمن ضلّ منهم يقطع من شجرته ويذهب ملعونًا فى الأرض « احفظ ما أنا موصيك اليوم . ها أنا طارد من قدامك الأموريين والكنعانيين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين . احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض التى أنت آت إليها لئلا يصيروا فخًا فى وسطك . بل تهدمون مذابحهم وتكسرون أنصابهم وتقطعون سواريهم . فإنك لا تسجد لإله آخر . لأن الرب اسمه غيور . إله غيور هو . احترز من أن تقطع عهدًا مع سكان الأرض . فيزنون وراء آلهتهم ويذبحون لآلهتهم فتدعى وتأكل من ذبيحتهم . وتأخذ من بناتهم لبنيك . فتزنى بناتهم وراء آلهتهن ويجعلن بنيك يزنون وراء آلهتهن[2] .

وفى اللاويين « بكل هذه لا تتنجسوا لأنه بكل هذه قد تنجس الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم . فتنجست الأرض . فأجتزى ذنبها منها فتقذف الأرض سكانها . لكن تحفظون أنتم فرائضى وأحكامى ولا تعملون شيئا من جميع هذه الرجسات لا الوطنى ولا الغريب النازل فى وسطكم . لأن جميع هذه الرجسات قد عملها أهل الأرض الذين قبلكم فتنجست الأرض فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم إياها كما قذفت الشعوب

---

(١) خروج ٢٣ : ٢١ - ٢٣ .

(٢) خروج ٣٤ : ١١ - ١٨ .

التى قبلكم . بل كل من عمل شيئًا من جميع هذه الرجسات تقطع الأنفس التى تعملها من شعبها . فتحفظون شعائرى لكى لا تعملوا شيئا من الرسوم الرجسة التى عملت قبلكم ولا تتنجسوا بها . أنا الرب إلهكم[1] » .

وإذا كان الله قد أنعم عليهم وفضلهم على العالمين فإن نذيره إليهم بالعذاب شديد إن خالفوا وصاياه ، وضلّوا عهده . « لكن إن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا وان رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاقى فإنى أعمل هذه بكم . أسلط عليكم رعبًا وسلًا وحمّى تفنى العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلًا زرعكم فيأكله أعداؤكم . وأجعل وجهى ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم[2] .

ويستمر نذير الرب فيقول : « وإذا كنتم بذلك لا تسمعون لى بل سلكتم معى بالخلاف . فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطًا وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى . وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم . وأوحش الأرض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها . وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم خربة .. والباقون منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أراضى أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضهم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد ولا يكون لكم طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين

---

(١) لاويين ١٨ : ٢٤ - ٣٠ .

(٢) لاويين ٢٦ : ١٤ - ١٧ .

الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم . والباقون منكم يفنون بذنوبهم فى أراضى أعدائكم . وأيضًا بذنوب آبائهم معهم يفنون[1] .

فوعد الرب لم يكن مطلقًا من كل قيد أو شرط بل العهد على الإيمان والمحبّة وطاعة الله واتباع سواء السبيل ، فلمّا ضلّوا حلّ عليهم العذاب وحاقت بهم اللعنة فتاهوا فى البرية سنين عددا وحلّ بهم القحط والوباء « فى هذا القفر تسقط جثثكم جميع المعدودين منكم حسب عددكم من ابن عشرين سنة فصاعدًا الذين تذمروا على . لن تدخلوا الأرض التى رفعت يدى لأسكنكم فيها ما عدا كالب بن يفنة ويشوع بن نون . وأما أطفالكم الذين قلتم يكونون غنيمة فإنى سأدخلهم فيعرفون الأرض التى احتقرتموها . فجثثكم أنتم تسقط فى هذا القفر .وبنوكم يكونون رعاة فى القفر أربعين سنة ويحملون فجوركم حتى تفنى جثثكم فى القفر . كعدد الأيام التى نجستم فيها الأرض أربعين يومًا للسنة يوم تحملون ذنوبكم أربعين سنة فتعرفون ابتعادى . أنا الرب قد تكلمت لأفعلن هذا بكل هذه الجماعة الشريرة المتفقة على . فى هذا القفر يفنون وفيه يموتون [2] » .

فأرض الميعاد هى لمن آمن بالله واليوم الآخر والإرث فيها للمؤمنين ، والاختيار هو للأرض وليس للشعب . والأرض هى الأرض المقدسة لا تنصب فيها أزلام أو أنصاب لعبادتها من دون الله ، وقد اختار الله من ذرية إبراهيم ليسكنوا تلك الأرض المقدسة لأن الرسالةكانت لإبراهيم ثم للمختارين من ذريته ؛ ولأن الله أراد لتلك الأرض أن تكون مطهرة طهورًا ، فاختار لها المطهرين ولم يكن غير بنى إسرائيل فى تلك الحقب من حظوا برسالة الرب ، حتى إذا انتقلت الرسالة إلى غيرهم من بطون

---

(١) لاويين ٢٦ : ٢٧ - ٣٣ ، ٣٦ - ٤٠ .

(٢) عدد ١٤ : ٢٩ - ٣٥ .

إبراهيم انتقلت إليهم الحظوة وأصبحوا هم المختارين ، وقد ادّعى اليهود الاختيار لأنفسهم فقالوا إنهم شعب الله المختار وكان ذلك حقًا حين لم يكن غيرهم من يعبد الله ولكن الاختيار كان للإيمان برسالة الله ، أما الاختيار الأبدىّ فهو للأرض المقدسة ، تلك الأرض التى غدت قدسًا ومحرابا لكل أديان السماء .

وقد وعد الله ألا يدخل إلى الأرض المختارة من بنى إسرائيل إلّا كل من آمن واتقى وعمل صالحًا أما المرتدّون فقد أفناهم قبل أن تطأها أقدامهم ، بل إن غضب الرب الذى لحق بهم قد لحق بموسى نفسه فلم يدخل الأرض المختارة ومات وهو على أبوابها . « وغضب الرب على بسببكم وأقسم أنى لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب إلهك يعطيك نصيبا . فأموت أنا فى هذه الأرض . لا أعبر الأردن . وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلهكم الذى قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة كل ما نهاك عنه الرب إلهك ؛ لأن الرب إلهك هو نار آكله إله غيور[1] » .

فاختيار إسرائيل كان اختيارًا موقوتًا بالرسالة فلما خرجت الرسالة منهم زال الاختيار عنهم ، وليس فى عبارة « لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد[2] » وهى التى يستند إليها الإسرائيليون دليلًا على أبديّة ملك إسرائيل ، ما يفيد معنى الأبدية أو الاستمرار فكلمة « أولام » العبرية لا تعنى إلى الأبد وإنما تحمل معنى القدم وتعنى الزمن الطويل ، هذا إذا أخذنا بتفسير الإسرائيليين لوعد الرب المقدس وأنه لإسرائيل من دون ذرية إبراهيم وليس لكل ذرية إبراهيم .

---

(١) تثنية ٤ : ٢١ - ٢٤ .

(٢) تكوين ١٣ : ١٥ .

وثمة حقيقة أخرى تبرز من ثنايا المقارنة بين ما وعد الله به إبراهيم فى عهد الختان وبين ما وعد به يعقوب وموسى من أنبياء إسرائيل ، ففى عهد الختان تمتدّ أرض الميعاد من « نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات » بينما لم يزد الوعد ليعقوب وموسى وأنبياء إسرائيل على أرض كنعان وما حواليها من أراضى الحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين مما يقع على ضفتى الأردن أو يمتد أحيانًا ليضم بقاعًا من لبنان وفلسطين وبعض بلاد سورية ولكنه لا يشمل كل هاتيك البقاع كاملة . فقد انتشر أبناء إبراهيم وذريته فى كل تلك البقاع قبل أن يصعد الإسرائيليون إلى أرض كنعان إلى الغرب من الأردن ، فارتحلت هاجر بولدها إسمعيل إلى الجنوب من برية فاران وتكاثر نسل إسمعيل فكانت منه العرب العدنانية ، وسكن أولاد قطورة فيما يبدو إلى الجنوب من فلسطين وإلى أحد بطونهم أصهر موسى ، أما أبناء عيسو فكان من نسلهم الأدوميون سكان جبل سعير ، غرب العربة أو بلاد العرب ، ولم يبق غير بنى إسرائيل من ذرية إبراهيم بعيدًا عن الأرض التى وعد الله بها أباهم إبراهيم ، فقد ارتحلوا إلى مصر بأبيهم يعقوب ليقيموا فى حمى أخيهم يوسف بعد أن أمنه فرعون مصر على خزائنه وأمواله وأقوات شعبه وأصبح له من الجاه والسلطان فى حمى فرعون ما لفرعون نفسه . وأقام بنو إسرائيل فى مصر زمنًا ، اثنا عشر سبطًا لأبيهم يعقوب أو إسرائيل ، وطاب نسلهم وتكاثرت ذريتهم ، ثم استرقهم المصريون وساموهم سوء العذاب ، حتى كتب الله لهم الخلاص على يد موسى فصعد بهم إلى الأرض التى وعد الله بها أباهم إبراهيم ، أرض كنعان التى « تفيض لبنًا وعسلاً » ، ليجتمع فى أرض الميعاد كل ذرية إبراهيم فلا يبقى منهم نزيل فى أرض غريبة ، وليكون وعد الله حقًا على المؤمنين .

وقد قسمت الأرض على أسباط بنى إسرائيل[1] كما لو كانت أرض نتفاع يقيمون فيها ويزرعونها ويعيشون على خيرها ولم يكن لأىّ سبط منها حق على أرض غيره من الأسباط الآخرين ، بل إن التقسيم كان بقصد الانتجاع والاستقرار كما استقرت ذرية إبراهيم الآخرون فى بقاع أخرى ، ولم يكن فى هذا الانتجاع والاستقرار ما يعنى إقامة دولة أو ملك فقد عاشت إسرائيل عيشة قبلية حتى بعد أن اختاروا لأنفسهم ملوكًا من بينهم ، ولم يحدث أن ملكت إسرائيل كل أراضى كنعان أو الفلسطينيين ولم يتح لملك إسرائيل أن يمتدّ ليسع بعض هذه البقاع إلّا فى عهد داود وسليمان فقد وصل ملك داود إلى دمشق وعقد معاهدة صداقة مع حيرام ملك صور . وقبل أن ينتهى عهد سليمان أخذ ملكه فى التقلّص وعادت البلاد إلى أهلها وظلّ ملك إسرائيل يتهاوى حتى لم يبق من مملكة سليمان إلّا بضع مئات من الأميال المربعة حول بيت المقدس استولى عليها البابليون عام ٥٨٦ ق. م .

فصعود إسرائيل إلى أرض كنعان كان إتمامًا لوعد الرب حتى تجتمع ذرية إبراهيم فى صعيد واحد من أرض الميعاد وليكون لإسرائيل ما كان لأبناء عمومته من نصيب فى الأرض المقدسة . وليس هناك ما يدعو إلى احتمال الظن بأن الصعود ببنى إسرائيل إلى أرض كنعان كان حقًا لهم بالاختيار والتميز والتفضيل ، وإنما كان حقًا لهم للخلاص من ربقة فرعون واسترقاق المصريين وللمساواة بأبناء عمومتهم الذين استقرّوا ببعض تلك البقاع من قبل ، لذلك حذّر الرب إسرائيل فى صعودها إلى أرض كنعان من التعرّض لأرض سعير التى يسكنها أبناء عمهم عيسو ولأرض مؤاب التى اعطاها الرب لبنى لوط[2] . ولم يعرض التحذير لأراضى الإسماعيليين

(١) يشوع من ١٣ إلى ٢٣ .

(٢) تثنية : ٤ - ٢٥ .

فقد كان مسارهم بعيدًا عنها ، مما يؤيد أن الأرض كانت للانتفاع لا لإقامة دولة أو ملك ، فلو كانت الأرض لإقامة دولة أو ملك لما قسمت من قبل على أبناء إبراهيم ولما قسمت أرض إسرائيل بين أسباطهم ، وحين قام ملك إسرائيل واختاروا من بينهم ملكًا كان ذلك منهم بقصد التشبّه بغيرهم من الشعوب الأخرى[1] وكان ملك إسرائيل حتى فى عهد داود وسليمان أشبه بزعيم قبيلة منه بملك على أمة .

وتقصّ التوراة أن ملك إسرائيل خرج من بنى سليمان عقابًا له على معصية الرب ، ولم يبق لرحبعام بن سليمان غير سبط واحد من أسباط إسرائيل هو سبط يهوذا يملك عليه فى أورشليم ، أما بقية أسباط إسرائيل فملك الرب عليها يربعام عبد سليمان[2] . وخرج كل من رحبعام ويربعام على مشيئة الرب وعبدا الأوثان .

« وأما رحبعام بن سليمان فملك فى يهوذا . وكان رحبعام ابن إحدى وأربعين سنة حين ملك وملك سبع عشرة سنة فى أورشليم المدينة التى اختارها الرب لوضع اسمه فيها من جميع أسباط إسرائيل . واسم أمّه نعمة العمونية . وعمل يهوذا الشر فى عينى الرب وأغاروه أكثر من جميع ما عمل آباؤهم بخطاياهم التى أخطئوا بها . وبنو هم أيضًا لأنفسهم مرتفعات وأنصابًا وسوارى على كلّ تلٍّ مرتفع وتحت كلّ شجرة خضراء . وكان أيضًا مأبونون فى الأرض . فعملوا حسب كلّ أرجاس الأمم الذين طردهم الرب من أمام بنى إسرائيل[3] .

---

(١) صموئيل الأول ٢ : ٤ - ٦ .
(٢) الملوك الأول ١١ : ٢٦ - ٤٣ .
(٣) الملوك الأول ١٤ : ٢١ - ٢٤ .

وحاق بإسرائيل ما حاق بيهوذا بعد أن ضلّوا وضلّلهم يربعام « ويضرب الرب إسرائيل كاهتزاز القصب فى الماء ويستأصل إسرائيل عن هذه الأرض الصالحة التى أعطاها لآبائهم ويبددهم إلى عبر النهر لأنهم عملوا سواريهم وأغاظوا الرب . ويدفع إسرائيل من أجل يربعام الذى أخطأ وجعل إسرائيل يخطئ[1] .

ويؤيد انقسام إسرائيل إلى مملكتين ، حقيقة ما يعنيه الوعد الإلهى لإبراهيم بأرض الميعاد ، فلو أن الوعد كان لإسرائيل وحدها دون ذرّية إبراهيم لما أراد الله لبنى إسرائيل أن يتفرّقوا فيكون منهم عشرة أسباط فى مملكة إسرائيل أو سمارايا أو السامرة وسبط وبعض السبط فى يهوذا ، ولما أراد الله أن تقع الحرب وتمتد بين المملكتين حتى يقضى عليهما واحدة بعد الأخرى ، ولما أراد الله أن يقضى على هذه الأسباط العشرة فلا يقصّ التاريخ عنها خبرًا بعد ذلك ، فقد شتّتهم سرجون الأشورى بعد سقوط السامرة عام ٧٢١ ق .م وحمل يهود السامرة أو الإسرائيليين إلى بقاع شتّى من مملكته ونقل إليها غيرهم ولم تعد السامرة إلّا ذكرى عابرة فى تاريخ اليهودية ، أما يهوذا فقد غزاها نبوخذنصر البابلى عام ٥٨٦ ق.م . وحمل اليهود سبابا إلى بابل وخرّب الهيكل فلم يذره إلّا حطامًا وأطلالاً ولم تستطع المملكتان حتى وهما فى أوج عزّهما أن تستوليا على كل فلسطين[2] .

وكان ذلك ختام ما كان لإسرائيل من نصيب فى الوعد الإلهى لإبراهيم كما يقصّ علينا تاريخهم وإن ظلّ حلم العودة إلى أرض الميعاد يراودهم ، إلّا أنه كان حلمًا شابته عواطف هى خليط من التعصب العنصرى والقومى

---

(١) الملوك الأول ١٤ : ١٥ - ١٦ .

(٢) جواد على : جـ ٢ ص ٣٦٠ .

والدينى نمتها الغربة وأذكاها ذلّ السبى ومرارة الاستعباد وترانيم الشعراء . وظهرت ترنيمة لشاعر مجهول بقيت فى الأبد تلهب عواطفهم المكبوتة وتورى حمى قسوتهم وأنانيتهم وكراهيتهم للبشرية جمعاء وكانت فى عذوبتها وعمقها رجع الصدى لنفوسهم الكليمة فظلّت فكرة الدولة اليهودية وحلم العودة إلى أرض الميعاد حيّة فى ترنيمة هذا المزمور كما يقول مؤلف كتاب « ثمن إسرائيل »[1] .

« على أنهار بابل جلسنا ، وبكينا عندما تذكرنا صهيون »
« على الصفصاف فى وسطها علقنا أعوادنا ، لأنه هناك »
« سألنا الذين سبونا كلام ترنيمة ، ومعذبونا سألونا »
« فرحا قائلين : رنموا لنا من ترنيمات صهيون »
« كيف نرنم ترنيمة الرب فى أرض غريبة »
« إن نسيتك يا أورشليم تنسى يمينى »[2] .

ويتعلّل بنو إسرائيل فى العودة إلى أرض الميعاد بحلم نبىّ من أنبيائهم يصوّر إسرائيل يعود مطهرًا وقد خلص من دنسه وأرجاسه . ففى حزقيال « هكذا قال السيد الرب . هأنذا آخذ بنى إسرائيل من بين الأمم التى ذهبوا إليها وأجمعهم من كل ناحية وآتى بهم إلى أرضهم . وأصيرهم أمة واحدة على الأرض على جبال إسرائيل وملك واحد يكون ملكًا عليهم كلهم ولا يكونون بعد أمتين ولا ينقسمون بعد إلى مملكتين . ولا يتنجسون بعد بأصنامهم ولا برجاساتهم ولا بشىء من معاصيهم بل أخلصهم من كل مساكنهم التى فيها أخطأوا وأطهرهم فيكونون لى شعبًا وأنا أكون لهم إلهـا[3] » .

---

(١) Alfred Lilienthal : C. I,P.I

(٢) المزامير ١٣٧ : ١ - ٤ .

(٣) حزقيال ٣٧ : ٢١ - ٢٣ .

ويلج عليهم الحلم فيتخيلون إله إسرائيل وقد عاد بهم إلى أورشليم المدينة المقدسة ، بفرحة النصر ومثوبة الخلاص ، كما فى أشعياء « استيقظى استيقظى البسى عزك يا صهيون البسى ثياب جمالك يا أورشليم المدينة المقدسة لأنه لا يعود يدخلك فيما بعد أغلف ولا نجس . انتفضى من التراب قومى واجلسى يا أورشليم انحلّى من ربط عنقك أيتها المسبية ابنة صهيون . فإنه هكذا قال الرب مجانا بعتم وبلا فضة تفكون » ثم يقول « تطهروا ياحاملى آنية الرب . لأنكم تخرجون بالعجلة ولا تذهبون هاربين . لأن الرب سائر أمامكم وإله إسرائيل يجمع ساقتكم[1] »

وفى أرميا « وأنت فلا تخف ياعبدى يعقوب ولا ترتعب يا إسرائيل لأنى هأنذا أخلصك من بعيد ونسلك من أرض سبيهم فيرجع يعقوب ويطمئن ويستريح ولا مخيف . أما أنت يا عبدى يعقوب فلا تخف لأنى أنا معك لأنى أفنى كل الأمم الذين بددتك إليهم . أما أنت فلا أفنيك بل أؤدبك بالحق ولا أبرئك تبرئة[2] » .

ويأملون فى بعث المسيح المخلص الذى يفكّ أسارهم ويعود بهم إلى أرض الميعاد فيراه أشعياء رجل أحزان وأوجاع يحمل كل أوزار إسرائيل « لكن أحزاننا حملها وأوجاعنا تحملها ونحن حسبناه مصابا ومضروبا من الله ومذلولا . وهو مجروح لأجل معاصينا مسحوق لأجل آثامنا تأديب سلامنا عليه وبجبره شفينا »[3] ويراه زكريا ملكًا وديعًا عادلاً منصورًا يجىء راكبا على حمار وعلى جحش ابن أتان فيقول « ابتهجى جدا يا ابنة

---

(١) أشعياء ٥٢ : ١ - ٣ ، ١١ - ١٢ .
(٢) أرميا ٤٦ : ٢٧ - ٢٨ .
(٣) أشعياء ٥٣ : ٤ - ٦ .

صهيون يابنت أورشليم . هو ذا ملكك يأتى إليك هو عادل ومنصور وديع وراكب على حمار وعلى جحش ابن أتان . وأقطع المركبة من افرايم والفرس من أورشليم وتقطع قوس الحرب . ويتكلم بالسلام للأمم وسلطانه من البحر إلى البحر ومن النهر إلى أقاصى الأرض . وأنت أيضًا فإنى بدم عهدك قد أطلقت أسراك من الجب الذى ليس فيه ماء . أرجعوا إلى الحصن يا أسرى الرجاء . اليوم أيضًا أصرح أنى أرد عليك ضعفين[1] » ويتخيله حزقيال ملكا من نسل داود « وداود عبدى يكون ملكا عليهم ويكون لجميعهم راع واحد فيسلكون فى أحكامى ويحفظون فرائضى ويعملون بها . ويسكنون فى الأرض التى أعطيت عبدى يعقوب إياها التى سكنها آباؤكم ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد وعبدى داود رئيس عليهم إلى الأبد . وأقطع معهم عهد سلام فيكون معهم عهدا مؤبدا وأقرهم وأكثرهم وأجعل مقدسى فى وسطهم إلى الأبد . ويكون مسكنى فوقهم وأكون لهم إلهًا ويكونون لى شعبا . فتعلم الأمم أنى أنا الرب مقدس إسرائيل إذ يكون مقدسى فى وسطهم إلى الأبد[2] .

ولا نستطيع أن نرقى بهذه الأحلام والأمانى إلى مقام العهد الإلهى لإبراهيم أو الوعود المقدسة لإسحق ويعقوب وموسى صلوات الله عليهم فقد كانت النبوة فى إسرائيل أمرًا مألوفًا وكان أنبياء إسرائيل كقديسى المسيحية وفقهاء الإسلام يتميزون بالصلاح والتقوى والاجتهاد فتارة ينكشف عنهم الحجاب كبعض المتصوّفة فيلهمون الصواب أو تغلق قلوبهم فيضلّ تفكيرهم ويخطئ تقديرهم . وقد أشار العهد القديم إليهم ففى التثنية على لسان الرب إلى موسى يقول : « أقيم لهم نبيا من وسط

---

(١) زكريا ٩ : ٩ - ١٢ .

(٢) حزقيال ٣٧ : ٢٤ - ٢٨ .

إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به . ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه . وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى . وإن قلت فى قلبك كيف نعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب . فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه[1] » ومعنى هذا أن النبوة كانت أمرًا مألوفًا فى إسرائيل ليحفظ هؤلاء الأنبياء شعائر الرب وهم فى هذه الصورة أشبه بفقهاء الإسلام أو بعض المتصوّفة والنساك من أولياء الله المسلمين أو قديسى المسيحية ، وقد قال صلوات الله عليه : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل[2] » .

ومصداق ما يقول أنبياء إسرائيل صدق قولهم ومعنى ذلك أن كلامهم ليس حجةً ولا يمكن أن يرقى إلى قدر العهود أو الوعود المقدسة ولا يعدو كونه حلمًا جميلًا أو أمنية عذبةً لم تتحقق ، ومادامت لم تتحقق فهى ليست من كلام الرب كما جاء فى العهد القديم . أما إذا قال البعض إن بعض هذه النبوءات قد تحقق بعودة اليهود من الأسر البابلى إلى أورشليم وبناء المعبد من جديد فليس فى هذا ما يدل عل تكرار العودة أو أن لإسرائيل عودة أخرى إلى أرض الميعاد يحققها الرب ويرعاها فلم يشر الأنبياء إلى عودة أخرى غير العودة من الأسر البابلى والنبوءة لا تتكرر أكثر من مرة[3] .

---

(١) تثنية ١٨ : ١٨ - ٢٣ .

(٢) راجع عبقرية المسيح للعقاد ص ١٥ - ١٦ .

(٣) بروفسور جيليوم : الصهيونيون والتوراة ص ٨ .

أما الوعد الإلهى لإبراهيم فقد تحقق فى المسيحية وفى الإسلام وكان فيهما ختام النبوءة ومصداق العهد الإلهى كما ندلّل عليهما فى الفصول التالية .

obeikandl.com